الفصل الرابع عشر
الشروط الفنية والاقتصادية للطباعة والكتب المطبوعة في القرن الخامس عشر

لاحظنا سابقاً أن أوائل الطابعين اتخذوا المخطوطات نماذج لهم وأنهم كانوا يحاولون جعل المطبوع تقليداً للمخطوط، ولا سيما فيما يتعلق بالزخرفة والتصوير حيث كانوا يتركون في المطبوع فراغاً مناسباً لاضافة الزخارف له ـ فيما بعد ـ يدوياً. ولكن هذا الاتجاه ما لبث أن زال وأقلع الطابعون عن اتخاذ المخطوطات نماذج لهم، وبدؤوا يطبعون الرسوم مع النصوص نفسها. وهذا ما اتبع في الكتب اللوحية التي كانت لا تزال واسعة الانتشار خلال العقود الأولى من اختراع الطباعة، حيث ظهرت فيها الرسوم المطبوعة نتيجة لحفر صورها وطبع صورها في الوقت نفسه مع النصوص المكتوبة فوق ألواح من الخشب. وقد انتقلت الطريقة نفسها إلى الكتب المطبوعة بحروف متحركة، حيث كانت كليشيهاتها الخشبية المحفورة عليها الصور توضع كجزء مكمل للعمود، بل وتطبع في نفس الوقت مع الحروف المجمعة.

ويمكن أن نعد الطابع فيستر من بامبرغ أول طابع استخدم الصور المحفورة على الخشب في طبع كتبه. وأول كتاب طبعه بهذه الطريقة هو كتاب «**الحجر الكريم**» الذي طبعه سنة ١٤٦١م. وهو كتيب شعبي، ولكنه غني بالصور العديدة المحفورة على الخشب. ولم تكن كتب فستر ومعاصريه تهدف إلى أي تأثير زخرفي بحال من الأحوال، ولذا يجب اعتبارها مجرد رسوم حقيقية؛ الغرض منها توضيح النص للقارئ العادي الذي أعد الكتاب له. ولقد انتشر فن الحفر على الخشب بسرعة فائقة ووجد عدد من الفنانين الألمان الذين كانوا أول من أشاع استعمال الحروف الأولى والمزخرفة على الخشب.

توراة كولونيا المحفورة سنة ١٤٨١م.

تمثل هذه التوراة تقدماً جديداً في الحفر على الخشب بالنسبة للفترة السابقة، وهي لا شك أشهر كتب التوراة العديدة المصورة والتي عُدَّت على ممر الزمن ممثلة لمرحلة خاصة

في تاريخ الكتب. اما صورها فقد رسمها فنان عظيم، ولكننا نجهل اسمه، كما وأننا لا نعلم اسم الحفار المبدع الذي حفر كليشيهات الخشب حسب رسومها.

وعلى عكس معظم الكتب المصورة التي صدرت سابقاً، نجد هذه التوراة تمثل لنا صوراً على الخشب ليست الغاية منها مجرد تحديد معالم الرسم فحسب، وإنما أمكنها بخطوطها القوية أن تخلع على الشخصيات مظهراً مجسماً. ومثل هذه الحياة الظاهرة في الرسوم لم تكن معروفة من قبل في الكتب السابقة.

وما لبث فن الحفر على الخشب أن أصبح يشكل عنصراً زخرفياً متكاملاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، متوافقاً توافقاً تاماً مع النص الوارد في الكتاب، ولعل أهم كتاب صدر في أواخر هذا القرن (١٤٩٣م) يمثل هذا التقدم السريع في فن الحفر على الخشب هو كتاب «**تاريخ العالم**»، والذي يُعدّ ـ بما حواه من ألفي صورة محفورة على الخشب ـ من أثمن الكتب المزودة بالصور والتي ظهرت حتى أيامنا هذه.

ولقد كانت الصور المحفورة في هذا النوع من الكتب معدة أيضاً للتلوين. غير أن هذه الظاهرة التي تحاول تقليد المخطوطات، لم تلبث أن اختفت بحيث سادت الصورة المطبوعة بالأسود والأبيض، ولقد وصل فن الزخرفة إلى درجات عليا من التطور على يد الألماني راتدولت Ratdolt الذي أسس مطبعة له في البندقية سنة ١٤٧٠م وافتتح فن البندقية الخاص بالحفر على الخشب؛ الذي تطور أبدع تطور وأعظمه في الفترة التالية.

ولا شك أن الحروف الكبيرة الأولى والاطارات المحفورة على الخشب التي صنعها راتدولت تُعد ولا شك أول ما يحمل طابع النهضة، إذ نجد بها الزخارف القديمة المعروفة عن طريق مخطوطات عصر النهضة. وقد اكتسبت تلك الزخارف ثوباً فنياً بارعاً من السواد والبياض، الناتج من الحفر على الخشب. وله نفس الروعة التي امتاز بها في الماضي بهاء الألوان البراقة في المخطوطات.

ولقد استمر نفوذ راتدولت في ايطاليا بعد تركه اياها سنة ١٤٨٦م. إذ استمر ظهور الكتب المطبوعة التي تمتاز صحيفتها الأولى باحاطتها ـ على نسق كتب راتدولت ـ باطار عريض من طراز عصر النهضة، تتعدد فيه زخارف الأعمدة والأصص وأوراق الغار والكرم والحيوانات الخرافية والأقنعة والرؤوس الآدمية وغيرها، ممتازة في ذلك كله بخيال واسع خصيب. أضف إلى ذلك الحروف الأولى المدهشة التي تحددت زخارفها باطارات

ذات زوايا رباعية.

وهكذا نجد فن الألمان الأوائل المتخصصين بالحفر على الخشب قد اتحد اتحاداً مثمراً مع الإدراك الجمالي الذي كان سائداً في عصر النهضة وخاصة في البندقية من ايطاليا، حيث بلغ فن الكتاب في وقت قصير للغاية، بهاء لم يبلغه منذ ذلك الوقت في ميدان الطباعة. وعلى الرغم من تجارب القرون التالية، بل وعلى الرغم أيضاً من التحسينات الضخمة التي أدخلت على الأدوات المستعملة في عصرنا الحالي إلا أننا شبه عاجزين عن خلق كتب تضاهي كتب البندقية المطبوعة حوالي ١٥٠٠م.

ومن أشهر الكتب المصورة التي صدرت في هذه الفترة في ايطاليا كتاب «**ترجمة التوراة**» الصادر عام ١٤٨٠م. ولا شك أن صور هذا الكتاب الصغيرة العديدة المحفورة على الخشب بدقة عظيمة قد تأثرت بصور «**توراة كولونيا**».

كذلك ازدهر فن الحفر على الخشب في ألمانيا في أوائل القرن السادس عشر حتى اعتبرت هذه الفترة العصر الذهبي للحفر على الخشب. ويُعدُّ رائد هذا الفن في ألمانيا الفنان دورير الذي ظهر له عام ١٤٩٨م في مدينة نورمبرغ كتاب «**رؤيا يوحنا**»؛ وهو كتاب تمثل لوحاته الخمس عشرة المحفورة على الخشب أحد الأعمال الفنية التي تحدد عصراً في فن الطباعة، إذ تزدهر هنا الصورة المطبوعة بالأسود والأبيض بحرية تامة ودون اعتماد على تلوين، بحيث تؤثر تأثيراً كاملاً ورائعاً في المشاهدين، عن طريق إحداث الظل والضوء الناتج عن التباين الذي يظهره مجرد رسم الخطوط السوداء على الورق الأبيض فقط.

ولقد انتشر فن الحفر على الخشب في ألمانيا كلها بسرعة مدهشة، ووصل أقصى نضجه ومات بعدها من أثر التخمة. ولقد كانت ستراسبورغ من أشهر مراكز هذا الفن في ألمانيا، كما كانت البندقية من أشهر مراكزه في إيطاليا. وكانت بال من أشهر مراكزه في سويسرا.

ولقد نبغ في بال عدد من الطابعين والحفارين على الخشب أشهرهم هولباين الذي أنتج عدداً كبيراً من الكتب المليئة بالزخارف المحفورة على الخشب. وتُعدُّ الصور التي زين بها هولباين كتاب «**العهد القديم**» الذي أصدره سنة ١٥٣٦م من أجمل ما أصدره من رسوم.

ولقد ساعد على تقدُّم فن الحفر على الخشب تشجيع الحكام لمثل هذا النوع من الفن

وجمعهم الفنانين لانتاج كتب ذات صور محفورة على الخشب ينتجها فنانون قديرن، كما فعل الإمبراطور مكسيميليان الذي جمع حوله أشهر الفنانين المعروفين فانتجوا له كتباً غاية في الجمال طباعة وتجليداً وزخرفة وصوراً.

ولكن هذه الطبعات الفاخرة يجب ألا تُنسينا بقية الكتب العادية التي صدرت في ذلك العصر. إذ صدرت كتب كثيرة لاستعمال الرجل العادي.

هذا وإن أغلب الموضوعات التي تحويها تلك الكتب هي موضوعات دينية أمرت الكنيسة غالباً بطبعها بكميات كبرى وبيعها لأفراد الشعب بأسعار معقولة، وهي كتب الصلوات والتراتيل وكتب الفروض الدينية وما إليها من موضوعات. أضف إلى ذلك كتب المزارات الدينية وهي نوع من الكتب المستعملة كدليل للحجاج ويوجد بها وصف ومناظر المزارات الدينية والكنائس والأديرة وما شابه. وقد تخصص بعض المطابع في انتاج نوع معين من هذه الكتب وزينت بالزخارف الناتجة عن التباين بين حروفها الكبيرة والصغيرة التي تميز فصول النص المختلفة، بالإضافة إلى التعاقب المستمر في الطباعة باللونين الأحمر والأسود.

كذلك تطور فن التجليد تطوراً عظيماً وأصبح تجليد الكتب صناعة لها تنظيمها الخاص. ولقد نشأت في هولندا في أواخر القرن الخامس عشر طريقة للتجليد كان زخرف الغلاف فيها يحفر كله على لوحة واحدة تطبع بواسطتها الزخارف دفعة واحدة بحيث تبدو الزخرفة بارزة على سطح الجلد. وقد انتشرت طريقة التجليد هذه ـ المسماة طريقة التجليد البارزة ـ في كل من ألمانيا وإنكلترا وفرنسا بواسطة أعضاء نقابات المجلدين والمهاجرين الذين أسسوا مصانع للتجليد في كل من كامبردج وباريس وليون.

ولقد سار التجليد في إيطاليا في خط تطوري مخالف كل المخالفة لفن التجليد في ألمانيا وفرنسا وانكلترا . ذلك أن إيطاليا بعامة، والبندقية بخاصة، كانت على صلات وثيقة مستمرة مع الشرق الإسلامي آنذاك.

وقد وفد على ايطاليا في أواخر القرن الخامس عشر مجلدون شرقيون مما أدى إلى رقي هذا الفن رقياً عظيماً.

وقد تعلم الايطاليون من أساتذتهم المسلمين عدداً من الخصائص الفنية والأشكال الزخرفية في فن التجليد، وأول ما تعلموه منهم هو فن التجليد المذهب، وبدؤوا يمزجون

بين التذهيب وبين التجليد على البارد بحيث نشأ من هذا فن تجليدي خليط. ثم ما لبث أن طغى التجليد المذهب على أنواع التجليدات الأخرى، كما في تجليدات الدوس في ايطاليا التي أجراها لحساب كبار هواة التجليد في عصره.

الظروف الاقتصادية للطباعة الأولى :

ذكرنا سابقاً أن عدداً كبيراً من الطابعين كان يتجول في أوروبا ويحيا حياة متنقلة من بلد إلى بلد. ويرجع السبب في ذلك إلى أن بعض الكنائس الخاصة والمؤسسات الكنسية الأخرى كانت مواردها أضعف من أن تمول مطبعة خاصة بها، مما اضطرها إلى استدعاء أحد الطابعين لمدة محدودة من أجل طبع كتبها الدينية، كما هو الحال مثلاً مع سنيل Snell وارنديس.

منافسة المخطوط للمطبوع :

كان تجار الكتب قد أنشؤوا نقابة تضم النساخين والرسامين والمجلدين، ولم يسمحوا باستبعادهم دون مقاومة، وحاولوا، بمساعدة الجامعات، التحقير والتقليل من شأن منافسيهم الجدد (الطابعين). ولكن جهودهم باءت في النهاية بالخيبة والخذلان. ولكن حافظت المخطوطات أول الأمر على سيادتها، إذ ظلت موضع التقدير والاعتبار. فقد كان الكتاب المطبوع الذي يمكن أن يطبع منه عدد كبير من النسخ أمراً مألوفاً عادياً أكثر من الكتاب المخطوط الذي لم يكن يوجد منه، في الأعم الأغلب، إلا عدد قليل جداً من النسخ. والواقع أن كثيراً من هواة جمع الكتب في هذا العصر كانوا معادين عداوة صريحة للكتاب المطبوع، إلى حد أنهم لم يطيقوا أبداً اقتناءه ووضعه في مكتباتهم، كما فعل الدوق فريدريك دور بان. وتعد محاولات أقدم الطابعين محاكاة المخطوطات في مطبوعاتهم مما يفسر مبلغ التقدير العظيم لهذه الكتب المخطوطة.

ومع هذا يجب أن نقرر أنه، حوالي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بدأ فن التصوير في المخطوطات، وبالتالي بدأت محاولات تقليد المطبوع للمخطوط، في الاضمحلال، وإن ظل له بعض الأنصار، ولكن أيامه الذهبية ولت إلى غير رجعة.

ومهما يكن من أمر، فإن الكتاب المطبوع ما لبثت أقدامه أن رسخت في وقت قصير، بحيث تحول كثير من الخطاطين والنساخين والرسامين القدماء إلى طابعين ناشرين أو إلى حفارين على الخشب. كما اتخذ الكتاب المطبوع مكانه بالتدريج في المكتبات.

وقد استدعت الكنيسة الطباعين لخدمتها، وحلت المطبعة في الأديرة محل المنسخ. كذلك أدرك الإنسانيون الإيطاليون فائدة فن الطباعة الجديد وما يمكن أن يؤديه من خدمات.

المنافسة بين الطابعين :

غير أنه كان من الطبيعي والمعقول أن يتلو التطور السريع للطباعة منافسة متزايدة بين الطابعين، إذ أن تخفيض الأسعار كان مما يساعد على اتساع سوق الكتب. ولذا فقد ظهرت في هذه الفترة كتب شعبية كتبت باللغات الوطنية تحوي تواريخ وقصصاً وعظية ومغامرات وما ماثل، وقد زينت بالصور وذلك من أجل جذب انتباه الرجل العادي وجعله يقبل على شراء الكتب. وقد أدى ذلك بالتالي إلى سرعة انتشار هذه الأنواع من الكتب بين طبقات الشعب العامة التي ظلت محرومة حتى آنذاك من نعمة الكتب.

ومع ذلك فلم يكن جمهور المشترين كبيراً إلى الحد الذي يمتص هذا الفيض الجارف من المطبوعات المتلاحقة. ولذا لم تكن أرباح الطابعين طائلة، حتى اضطر بعضهم إلى التجول مع آلاتهم الطباعية من بلد إلى أخرى، وإلى القيام بعدة أعمال في آن واحد. والمعروف أنه حتى سنة ١٥٠٠م كان عدد الكتب التي تم طبعها قد بلغ ثلاثين ألف كتاب (ثلثها في ألمانيا وحدها). وعلى الرغم من أن عدد النسخ المطبوعة من كل كتاب كان يتراوح بين مائة نسخة وألف، إلا أننا نجد أنفسنا أمام انتاج ضخم للغاية.

باعة الكتب المتجولون

كان الطابع في الزمن الأول غالباً ما يكون في الوقت نفسه بائع كتب فيقوم ببيع الكتب التي يطبعها. غيرأن الباعة المتجولين ما لبثوا أن ظهروا، وهم الوكلاء الذين ينتقلون من بلد إلى بلد لبيع الكتب التي يشترونها من الطابعين.

ولم تزل لدينا نشرات وزعها أولئك الباعة المتجولون ترجع إلى عام ١٤٦٩م كانت تعلن وصولهم إلى المدينة، كما كانت تعدد أسماء الكتب التي يحملونها على عربتهم، داعية الزبائن إلى زيارة محلهم الذي أقاموه في الفندق الذي يقيمون فيه.

كبار الناشرين

لم يربح ربحاً كافياً من هؤلاء الطابعين غير بضعة نفر منهم، ممن كانت صفقاتهم كبيرة، وممن استطاعوا فتح الحوانيت على نفقتهم في المدن التجارية الكبرى، من أمثال شوفور في

باريس، ذلك أن سوق الأدب اللاتيني لم يكن وقفاً على حدود بلد أوروبي واحد.

وصارت في ألمانيا فرانكفورت وكولونيا وستراسبورغ مراكز نشطة لتجارة رائجة في الكتب. ومن بين من اشتغلوا بهذه المدينة الأخيرة جان منتلان الذي طبع أول توراة ألمانية، وكان يقوم بطبع الكتب وكذلك كان يكلف الطابعين الآخرين بطبع الكتب له، وكان يدفع لهم اجر إنتاجهم ورقاً أبيض يبلغ ضعف ما كانوا يقدمون له من ورق مطبوع. على أن أعظم هؤلاء الطابعين الناشرين كان انطون كوبرجر Koberger الذي كانت مؤسسته في نورمبرغ أعظم المؤسسات الألمانية في عصره وبلغ عدد الكتب التي نشرها بنفسه ما يقارب المائتين وعشرين كتاباً. وكانت له فروع في فرانكفورت وباريس وليون، وله علاقات وصلات تجارية مع تجار الكتب في إيطاليا وهولندة وبولندا والنمسا.

كذلك احتل في ايطاليا نقولا جينسون الذي كان مركزه البندقية، المركز الأول حول نهاية القرن الخامس عشر.

الأعمال التجارية :

لم يكن من النادر أن يشترك طابع وحفار على الخشب وممول في انتاج كتاب ضخم. وهذا ما فعله انطون كوبرجر سنة ١٤٩٢م عندما عقد اتفاقاً مع بعض الفنانين والممولين بقصد نشر كتاب «**تاريخ العالم**» لمؤلفه شدل باللغتين الألمانية واللاتينية. وكان بعض طابعي هذه الفترة على درجة كبيرة من الثقافة، كما كان يغلب التحاق العلماء بخدمة المطابع الهامة كناشرين ومصححين.

متجر الكتب :

ولقد بدأت في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر، تظهر متاجر الكتب المتنوعة ـ إلى جانب بائعي الكتب المتجولين ـ التي استخدمها كبار الناشرين، لأنهم كانوا بهذه الوسيلة يستطيعون، ليس فقط بيع كتبهم التي ينشرونها، وإنما كان يمكنهم أيضاً بيع ما عدا ذلك من الكتب التي ينشرها الآخرون. كما نشأت إلى جانب ذلك متاجر كتب مستقلة مخصصة لبيع الكتب المتنوعة حيثما وجدت تسهيلات لتجارتها، وخاصة في المدن التجارية والجامعية الكبرى.

التقليد :

يحتمل أن كثرة عدد النسخ المقلدة ـ التي انتشرت انتشاراً واسعاً في العهد الأول

للطباعة ـ كان من أسباب هبوط أسعار الكتب تدريجياً. فلم يكن هناك أي سبيل أمام الناشرين أو الطابعين للمحافظة على حقوق ملكيتهم. وقد قلدت كتب كثيرة منذ ظهورها. وربما فسر التطور السريع لعلامات الطابعين رغبتهم في إثبات ملكيتهم لهذه الكتب. ولا جدال في أن أول علامة لطابع فرنسي كانت للطابع الباريسي انطوان كايو الذي قلد كتب «**ساعات الفروض**» التي نشرها جان دوبريه. ومع هذا فلم يمنع ذاك من ظهور مقلدين أيضاً لعلامات الطابعين بدورها، مما أظهر عدم كفايتها لحماية الملكية الأدبية.

دراسة أقدم المطبوعات :

يطلق على أقدم الكتب المطبوعة اسم INCU NABULA، وهي مشتقة من اللغة اللاتينية Cunabulum ومعناها المهد. وقد درست هذه الكتب دراسة مكثفة جداً، وألفت فيها الكتب الكثيرة وعمل لها الفهارس المتعددة المتنوعة، وعرف عددها وأماكن وجودها، كما درست خصائصها الفنية والطباعية وأحرف الطباعة التي استخدمت في طباعتها مما يشكل موضوعاً مستقلاً قائماً بذاته.